مهنته، وكان شكله يميزه، طويل وعريض، وله وجه لو رأيتموه لخيل لكم انه لم يعرف الضحك في حياته» ص: ٥٠. وعندما يصف «فيصل» وضع الفلاح امام المسؤول «ابن المدينة» يقول: «يتناول الضابط الرسالة فيقرأها، وقد نسي ان يدعو الفلاح للجلوس، ويدرك سواء كانت خبرته كثيرة او قليلة خطورة الامر الذي يتحدث عنه قائد الفصيل، ولكنه يشعر بالعجز عن تلبية طلباته، لاسباب يطول شرحها لو اردنا ان نشرحها. ويشرد ذهنه، فيذكره الفلاح الذي لم يشعر انه نسي، بأن قائد الفصيل يطلب الجواب، ويعرف الضابط ان من واجبه ان يجيب اي شيء، فيتناول ريشة من تلك الريش الكبيرة، التي كانت شائعة في ذلك الوقت، ويغط رأسها بالمحبرة بأناة، ويشرع بالكتابة، منتقيا كلماته.... ، وينتبه الى انه قد عامل الفلاح بجفاف فيسأله عن اسمه، ويسمع اجابته ثم ينساها بعد لحظة » ص: ١٤٤. ان هذه الدقة بالوصف والتقاط التفاصيل تعبر عن معرفة الكاتب الحقيقية بالموضوع الذي يكتب عنه، وتجعله ينتج بالضرورة كتابة تقترب من الحقيقة وتبتعد عن «الشطحات» الذهنية الرائجة في الكتابات الفلسطينية.

وعندما يقترب الكاتب، في كتابته، من حدود الحقيقة فإنه لا يعيد «صورا تاريخية» بل ينتج جملة من العلاقات الفنية لان الفني لا يرى الا في شكل علاقته مع الموضوع الذي يقاربه. وفي حدود هذه «الحقيقة» اعطى «فيصل» شخصية «الشيخ حسن» واجاد في تحديد ملامحها، وجعل منها النموذج الوطني الذي تسمح القرية الفلسطينية بإنتاجه موضوعيا. فـ «الشيخ حسن» هو نموذج الفلاح البسيط الذي يدافع عن قضيته الوطنية مدفوعا بالايديولوجيا الدينية، اي بشكل الوعي المرتبط بالبيئة الفلاحية. وقد استطاع «فيصل»، من خلال هذه الشخصية، ان يحدد طبيعة القوى الاجتماعية التي لعبت دورا اساسيا في النضال الوطني وتحديد شكل وعيها الاجتماعي ايضا. وارجع هنا فأقول من جديد: ان القيمة الفنية لهذه الشخصية لا تعود الى دلالتها التاريخية بل تعود الى قدرة الكاتب على تحديد ملامحها المعنوية والايديولوجية والاجتماعية، اي قدرته على تملك الموضوع الذي يكتب عنه.

قلت ان «فيصل حوراني» في روايته «بير الشوم»، قد استطاع، وبنجاح كبير، ان يرسم عالم القرية الفلسطينية في شكلها الحقيقي لا الوهمي؛ واستطاع ايضا ان يحدد شكل الوعي الاجتماعي القائم فيها، لكنه لم يستطع ان يرصد الصراع الاجتماعي الوطني في شكله الحقيقي. لنَر كيف تم ذلك؟

يقول البعض: «البداية الحقيقية هي النهاية»، ومع اننا نقترب من هذا القول فلن نسحبه على نهاية رواية «فيصل حوراني» لسبب بسيط هو ان هذه النهاية لا توائم البداية التي انطلق منها الكاتب، علما بأن هذه النهاية تركت ظلالها على البداية، اضف الى ذلك ان هذه النهاية جاءت زائدة لان غيابها لا يؤثر مطلقا على كلية الرواية. فما هي هذه النهاية؟

بدأ الكاتب روايته برسم حركة شعب وانهاها بمصير فرد، اي بدأ من الشعب